

الرقى الادبي ام النشوء العضوي

اساس الحضارة المقبلة^(١)

قال احد الباحثين في امريكا « ان العجز عن الشور على برهان يثبت ارتقاء العقل الانساني خلال زمان التاريخ ، هو عندي انصح برهان على خلق العقل البشري وعدم خضوعه لما تقوم عليه نظرية التطور من القواعد »

وقد يكون هذا الزم مؤبداً لما يراه الكثيرون من الباحثين ، وعلى الاخص الذين عكفوا على درس التاريخ الانساني والادب القديم . في حين ان الذين عمقوا في درس علم الجيولوجيا ومذاهب التطور الحديثة ، لا يروى فيه الا ظاهراً من القول ضعيف الاساس . اما الواقفون على حقائق علم الآثار المتحجرة — الباليئولوجيا — فيعرفون ان مذهب النشوء ليس مذهباً يحتاج الى برهان يثبت ، بل يؤمنون بأنه ناموس طبيعي ثابت وأنه حقيقة واقعة تؤيدها المشاهدات والتجربة ، حتى انهم لكثرة ما يرون من اوجه تطبيق على دقائق الحياة وتفاصيلها ، يتعذر عليهم ان يعتقدوا بان باحثاً اكتملت في عقله قوة التباس والاستنتاج ، يمكن ان يشك في حقيقة هذا الناموس ، الا كما يشك في نواميس الطبيعيات والكيمياء

وعلى الرغم من كل هذا فاني موطن بان ذلك القول الذي فاه به هذا الباحث صحيح من كل الوجوه اذا أخذ على ظاهره . اما حقيقة ما اراد ان يستدل به عليه فلا يمكن التسليم بها فان كل ما عرفت وقرأت من حقائق التاريخ يدلي على ان هذا القول صحيح . فليست ارى من وجه يقتضي بان القوى العاقلة في الانسان قد ارتقت ارتقاء ما خلال زمان التاريخ المدون . فانك اذ تقرأ محاورات افلاطون تشمر بانها قد كتبت لتوصيها عقول فيها من الذكاء وحدة الادراك ما لي عقول طلاب الفلسفة في زماننا هذا . وكذلك نجد ان قوة الادراك والفهم في عقول الذين كتبوا الافاجيل ليست باقل منها في عقول الكتاب المحدثين . ولا ريب في ان تجمع المعرفة وورائتها قد ادباً بطبيعة الحال الى تقدم كبير في معرفتنا بالحقائق والكليات العلمية والفلسفية التي تقوم عليها . ولقد كان اثر هذا التجمع ابلغ في تكوين مستحدثات المدنية وضرورتها منه في اي شيء آخر ،

(١) ملخصة عن العلامة و. و. ماير الباليئولوجي المعروف بمتحف التاريخ الطبيعي بالولايات المتحدة

كما كان لاختراع الطباعة وتسهيل طرق المواصلات اثر كبير في ان تقضي الحضارة نحو الارتقاء في خطوات اوسع واسرع . ولكنني لا اكاد ارى دليلاً مقنعاً على ان القدرة العقلية قد ارتقت خلال زمان التاريخ . واني على يقين من ان الارتقاء في هذه الصفة ضئيل ، ان كان هناك ارتقاء على اطلاق القول

على ان للعقل الانساني نواحيه المتشعبة المختلطة . واني اعتقد بان العقل البشري قد ارتقى وتطور في نواح اخرى غير تلك التي اصدر عليها الكاتب حكمه . وعلى هذا يقوم كثير من الظواهر والملاحظات . تلك هي النواحي الادبية والاخلاقية لدى مقابلتها بالناحية العقلية الصرفة ^(١) . هنا نستطيع ان نعتبر سواء في مظاهر التفكير ام في مظاهر العمل على دلائل من الارتقاء بالغة الاثر ، وعلى تهذيب بطن التقدم غير مفصوم الخلقات ولا مقطوع التسلسل ، وعلى الاختصاص اذا قابلنا بين المثال التي تقع عليها في كتابات القدماء ، وكتابات المحدثين . واني استعمل هنا لفظ « الصفات الادبية » ليشمل كل الحقوق والواجبات والآراء والاعمال التي تؤدي الى تنضيل مصالح الافراد المشغلة على مصالحهم الخاصة ، او بالاحرى المستقبل على الحاضر ، والتي تسوق الى بذل المصالح الفردية الضئيلة ابتغاء الاحتفاظ بالمصالح القومية الكبيرة ، والتي تؤدي دائماً الى ارتقاء الحياة والنظم الاجتماعية

خذ اول كل شيء النظرة الحديثة في المجرمين . فانا لا نعاقيهم اليوم على قاعدة العين بالعين والسن بالسن لان هذه المعاقبة لا تتفق والآراء الحديثة في الجريمة والعقاب ، مع اننا معتقدون بان هذه القاعدة هي هي التي تقوم في عقول المجرمين

ثم ارجع الى صفة الشجاعة ، وانظروكم من الجناء يمكن ان تعد بين صفوف المحاربين في حرب ما ؟ انك قلنا نعتز على فرد هنا او هناك انصف بهذه الصفة الدنيا من بين الملايين الذين يؤخذون من احضان الحضارة ليعيشوا في بيئة كل مقوماتها بعيدة عن طوائفهم وحاجاتهم المدنية ، بالغة متعنى ما نتصور من البعد عن استكمال معدات الراحة الجسمية والعقلية ، ويقعون فيها معرضين لاشد آلات الحرب فتكاً شهوراً واعواماً لا بضع ساعات تقضى في موقعة قصيرة ، كما كان الواقع في الحروب القديمة . وهذا ضرب من الشجاعة

(١) ان كثيرين من الباحثين يخالفون الكاتب في هذا ويرون ان الانسان ارتقى من الناحية العقلية لدى مقابلتها بالناحية الادبية او الاخلاقية . على ان كل من قرأ كتاب الاستاذ ليكي تاريخ الادب الاوروبية (Hist. of the European Morals) يوافق الاستاذ ما يروى عليه رايه هذا

والصبر واحتمال المشاق لم يتصف به في العصور الغائرة سوى بضعة افراد حملهم التاريخ في صدرهم كصور نادرة المثال . اما التراجع بغير انتظام والفوضى والحرب بعد حرب فتدوم ساعة او بضع ساعات ، فكانت التعصيب المحتوم في الحروب القديمة لاحد الفريقين المتقاتلين . ولكنك لا تجد لهذا الجبن من مثل في عصرنا هذا . اما الروح التي قضت على هذه الصفة الخبيثة فليست قوة في الاجسام ولا خشونة في التكرين او الخلق ولا استهانة بالحياة بل هي روح البذل والتضحية ، ظاهرة او كائنة وراء مشارها ، تعمل في سبيل مثل اعلی ، لا يعود خيره على اقوام دون اقوام ، بل يعم خيره الانسانية والحضارة ، على مقتضى ما يلوح اقربى المخاريب من معنى ذلك الخير وقوامه .

اما صفة ضبط النفس فلها مظهران . مظهرها الخاص ومظهرها العام . والاول خاص بالفرد والاسرة . والثاني بالجماعة

كم من القواد والملوك في العصور القديمة استطاعوا ان يحافظوا على سعادتهم وعنائهم ، بالاقلاع عن الانغماس في الشهوات التي قسرت اعمارهم وذهبت بجاه اسرم في جيل واحد او جيلين ؟ اليس التاريخ القديم خير مرآة يرى فيها الانسان صور الانراط والاسراف بلا نظر الى الغد ، والتطرح مع ملذات الساعة من غير تفكير فيما سوف يعقبها من خسائر المستقبل ؟ قارن هذا بما تجد في الاوساط العليا في العصر الحاضر من اتانة وصبر وهدوء ، وما تقع عليه في السياسي او المالي الحديث من صفات الشجاعة وضبط النفس والقدرة على كبح شهواتها . وانه لمن المبت ان اذهب الى احد من هذا في ضرب الامثال ولكن ارجع هتية الى صفة ضبط النفس في مظهرها الاجتماعي . فانها صفة قدمهت لجماعات سبيل التعاون في التجارة والسياسة . ان النجاح الذي صادفته هذه الجماعات التعاونية واستمرارها رغم الموانع ، لا أقوى دليل على ان هذه الصفة الادبية قد استقرت على غيرها من الصفات الدنيا في نفوس الذين يشتركون فيها ويعملون على انجاحها بكل طريق ممكن . في حين ان التاريخ القديم يربنا كثيراً من الامثال التي ندلنا الى اية درجة بلغت كفاءة القدماء في القدرة على الخضوع للنظام . وكذلك اذا قارنت ضخامة الجماعات التعاونية في العصر الحديث واتساع اعمالها بضوالة امثالها في العصر القديمة ونساذ نظائرها ، وارتباك حياتها الداخلية ، ادركت مقدار ما حصل عليه الانسان اخيراً في ارتقائه في هذه الصفة الادبية . اقرأ تاريخ الام الصغيرة التي عاشت في بلاد اليونان وتأمل قليلاً كيف انت قهصر نظمهم واثابتهم ، وغرورهم والظلم والقسوة ، قد حالت

بينهم وبين التعاون في العمل ، او دكتت الى الحضيض نظم الجماعات التي حاولت ان تعاون ؟ ثم انظر كيف ان الرومان وهم ادنى في القوة المائلة من اليونان مكانة ، قد جادوا عليهم ، لانهم كانوا اكثر قدرة على الخضوع للنظامات الاجتماعية ولا شك ان في استطاع الباحث ان يمضي في ذكر الاشكال من غير ان يصل الى نهاية . غير ان ما أثبت عليه هنا كاف للدلالة على ان تاريخ الانسان يدلنا صراحة على انه ارتقى وتهذب اديك واجتماعيا ولو عجز عن ان يربنا امثالا ثبت بها ان العقل البشري قد ارتقى اي ارتقاء منذ بداية التاريخ

ان هذا أقصى ما يُتَظَنُّ ان يحدته النشوء والتطور على القواعد الدارونية من آثاره فان نحة آلاف من الاعوام ، وبدايتها هي ابدء المصور التي يمكن ان نرجع اليها في مثل هذا البحث ، عهد قصير جهد القصر ، اذا قيس بما هو معروف من قدم المصور التي مضى فيها التطور مضيقاً من صفات الاحياء ، ولا يمكن ان يكون كافياً لان يحدث النشوء خلاله اي أثر في نشوء الانسان نشوءاً عضوياً . كذلك قوى الانسان العقلية التي هي في الواقع قائمة بتكوينه العضوي ، لا بد من ان تتبع طريقاً من النشوء تدرجياً بطيئاً . فان الاخصائين قداماً يستطيعون ان يفرقوا بين فجاجة حصان منقرض عاش في العصر البليستوسيني وبين جمجمة اخلافي في هذا العصر . فاذا عرفنا ان ذلك العصر الجيولوجي يبلغ على قول البعض ١٠٠,٠٠٠ من السنين ، وعلى قول الثقات في العصر الحاضر مليوناً او اكثر ، فانه كان من الظاهر ان اثر التطور الذي وقع في السلالات البشرية خلال نحة آلاف من الاعوام يجب ان يكون ضئيلاً غير محسوس . ولا ريبه في ان هذه القاعدة تصدق على اية سلالة من الحيوانات اللينة التي يكون لدينا من تاريخها التطوري اصدق البقايا والآثار . وعلى هذا القياس لا نتظر مطلقاً ان تقع على اي ارتقاء عضوي في تكوين الانسان او في قواه العقلية خلال زمان التاريخ . بل على الضد من ذلك ، اذا استبنا اي اثر ظاهر للارتقاء في عقل الانسان او تكوينه العضوي ، عددنا هذا الارتقاء شيئاً شاذاً خارجاً عن القياس يتطلب منا البحث والتعليل

وفضلاً عن هذا فان الصفات الادوية يمكن ان ننظر فيها نظرة الاعتقاد بانها تشارك العادات الثابتة والفرائق نشأتها ، وانها ليست مستمدة اعتماداً مباشراً من خصائص العقل الطبيعية والراجعة الى تكوين القوى المائلة ، وانها كغيرها من العادات والفرائق

اسرع قبولاً للتهذيب من تراكيب الجسم الطبيعية وغيرها من الصفات التي تتبعها
ومن المعروف ان الانتخاب الطبيعي يمد دائماً الى الاحتفاظ بالصفات التي تكون
بطبيعتها افيد للفرد او للسلالة ، ويجمعها في نسب خاصة بحيث يكون من المستطاع
ان تمضي في سبيل التهذيب والارتقاء . ولا مرء في ان صفات الانسان الادبية قد دخلت
خلال قرون عديدة ذات فائدة في تكوينه اجتماعياً ، لا تقل من فائدة التفوق العقلي
او البدني في تكوينه فردياً . وحيث انها اسرع قبولاً للتطور ، كان ارتقاء الانسان
من ناحيتها ابين واظهر . واني كمال بالآثار الفخيرة لا استطيع ان انظر في التاريخ
الانساني نظرة مستقلة عن الاعتقاد بانه عبارة عن مجموع ما احده الانتخاب الطبيعي
من آثار في السلالات لا في الازداد ، فنسج عن ذلك تطور اجتماعي ، لا تطور
فردى . وهذا النهج الذي جرى عليه النشوء الاجتماعي بما كانت فيه من التغير
السريع وادى الى ما نرى من مدعشات النظام والقبائس ، كان وقتاً على النوع
البشري وحده . على انه غالب ما يفتد الباحثون من عالم الحيوان امثلاً ينقضون بها اصل
النشوء الاجتماعي في الانسان . اما استقصاء آثار هذا التطور في سلالات منقرضة فتعذر
بيد المثال . لهذا يعتمد الباحثون على جماعات الحيوان العائشة اليوم ليستخلصوا من حالاتها
ملاحظات يستدلون بها على تطور الماذات فيها . ومن المشاهدات والمقارنات التي اجراها
الباحثون في جماعات الحيوان الحديثة يمكننا ان نحصل على عدة نتائج في مدى التطور
الاجتماعي ونمجه ، ومن ثم نطبقها على مستقبل النوع البشري

اولاً — ان الميل الظاهر الى التناسق الارتقائي مقرون بثبات في المثل والعادات .
فاننا قد نلاحظ في اول مدارج الارتقاء الاجتماعي ، مقداراً عظيماً من اليونة والنشاط
الفردى ، وتنوعاً كثيراً في اعمال الافراد تحت تأثير حالات مخصوصة . اما في الجماعات
الراقية ، فان الافراد تظهر كأنها تفكر وتعمل وتشر على نمط واحد ، وانها تقوم بواجباتها
على نهج من التناسق الآلى . وهذا اول درجات التعاون

ثانياً — اننا بالرغم من عثورتنا على اوجه من الارتقاء الكبير في العلاقات الاجتماعية
بين الحيوانات ، وعلى الاخص الحشرات ، فان تشابك حلقات الحياة الاجتماعية تظهر محدودة
من اوجه عديدة تبعاً لنسبة ذكاء الافراد . فانك لا تجد بين الانواع العليا في عالم الحيوان
سلالة قد بلغت من ارتقاء حياتها الاجتماعية مبلغ ما وصلت اليه الحشرات الاجتماعية
من دقة النظام والتناسق . لا تجد مثلاً انها وصلت في قسمة الفرد لصالح الجماعة الى

المحدد الذي وصلت اليه الحشرات . في حين أنك تجد ان تشابك حلقات الحياة الاجتماعية بين الحيوانات العليا أرقى منه بين الدنيا . وتجد ان هذا التشابك قد بلغ في الجماعات الانسانية اقصى المدى

والظاهر ان النتيجة الغاية التي يرمى اليها التطور الاجتماعي هي الحصول على نظام يعمل افراده في تجانس وتعاون عمل اغلايا في الجسم الحي - جارية على طريقة آلية متقنة الضبط - اما درجة التركيب والاختلاط التي يمكن لمثل هذا النظام ان يبلغها قبل ان يصل الى ذلك التبادل المتقن التام ، فمرونة عندي على مقدار الذكاء الذي يكون في كل وحدة من الوحدات (اي الافراد) التي تكون ذلك النظام

فاذا صحح هذا ، فإنه يمكننا ان نستنتج انه اذا بلغت تلك الآلية الاجتماعية هذا المبلغ من الكمال ، كان ارتقاؤها بعد ذلك بطيئا . فان الارتقاء بلوغ هذه الدرجة يكون راجعا الى تهذيب الصفات والصفات الاجتماعية ، وهي سريعة التغير والنشوء ، ولكن بلوغ الدرجات التي تليها يكون راجعا الى نشوء الصفات العضوية والعقلية العليا ، وهذه بطيئة التدرج نحو التهذيب والارتقاء

فاذا رجعنا الى التاريخ الانساني رأينا ان اوجه ذلك التغير العضوي العقلي بطيء الى درجة قصوى . واستنادا على هذا نقول بان التجه الحديث الذي يتجه نحوه التطور الاجتماعي هو حضارة فيها من اوجه التشابك والتبادل والتعاون أكثر مما يكون ليها من اوجه الرقي التالي . سوف تقوم الحضارة المقبلة على الرقي الادبي لا على الرقي العضوي . وان الحضارة سوف تعضي في استئصال الجرمين والكسالى والانانيين والخارجين على قواعدها ولا مزية في ان هذا لا يمكن ان يتم في جبل واحد ، ولا في اجيال

ولا يستطيع من كان مثلي بعد ان درس علم الآثار المتحجرة واخذ ينظر في التاريخ الانساني من ناحية ان ينفك عن هذه النظرة ، او يشك في هذه النتائج في مجموعها . كما اني لا اشك مطلقا في ان بلوغ هذه النتائج يقتضي قوة قد تحزننا حينئذ ، وقد نرغب فيها حينئذ آخر . قوة تقع على الذين خصوا بشيء من الغضب الخلقى وعدم القدرة على ضبط النفس وكبح جماح شهواتها ، الصفات التي تعود الى الظهور في الافراد من طريق الرجوع الى صفات اصولهم الانسانية الاولى . وكل آت آت . وقد نستطيع ان نقرأ المستقبل اذا اردنا ولكننا لا نحالة نعيم عن ان نصرفه عن متجه او نحوله عن مجراه

اسماعيل مظهر

بروفين